
الجوع والمجاعات
أنطون الجميِّل

الجوع والمجاعات

أنطون الجميِّل

تصميم الغلاف: محمد مطير

منطقة حرة، دبي، الإمارات

إيميل: publish@rufoof.com

صندوق بريد: 9648 عمان 11941

الموقع الإلكتروني: rufoof.com

إهداء

على ذكر المجاعة في سوريا ولبنان سنة ١٩١٦

إلى رؤساء الطوائف الأجِلَّاء الذين شملوا مشروع الإعانة برعايتهم.

إلى أعضاء اللجان في مصر والخارج الذين نهضوا متكاتفين للعمل.

إلى المتبرعين بالدينار أو بالدرهم الذين جادوا عن كرم وسخاء.

أقدم هذا البحث الأدبي التاريخي إقرارًا بفضلهم ومروءتهم، في هذه النكبة المؤلمة.

الجميِّل

الجوع والمجاعات

كثيرًا ما قلتَ يا سيدي، وقد أبطأ غداؤك، أو تأخر عشاؤك: «أكاد أموت جوعًا!»

بل كثيرًا ما قلتِ يا سيدتي، وقد عدتِ من زيارة لصديقتك، أو رجعتِ من نزهة شحذ هواؤها معدتك: «أموت جوعًا!»

وقاكم الله ذلك!

قلتم وتقولون مثل هذا القول يا سادة، وإنْ هو إلا من قبيل المجاز؛ فإن «موتنا جوعًا» في مثل الأحوال التي ذكرتُ ليس إلا كناية عن توافر الشهية للطعام والشراب، وزيادة قابلية المعدة للتلذذ بشهي المأكولات وطيب الألوان.

الجوع في الحقيقة وفي المجاز

مرَّت مركبة إحدى السيدات الموسرات بكوخٍ حقير فيه امرأة ناحلة شاحبة، وحولها أطفالها، بأسمالهم البالية، يتضورون جوعًا، ويرتعشون بردًا، فأسرعت السيدة إلى قصرها، وأصدرت أمرها إلى أحد أتباعها، أن يجمع ما يلزم من الزاد والملابس، فيحمله إلى ذلك الكوخ. ثم دخلت مخدعها، وقد أُشعل فيه الموقد وأُحضر الشاي وأطباق الحلواء، فأكلت هنيئًا، وسرى الدفء في جسمها، فقرعت الجرس، وقالت للخادم: «لا حاجة إلى حمل الزاد والملابس إلى حيث أشرتُ؛ فقد دفئ الجو وسكن الجوع.»

دفئتْ فظنت المقرورين قد دفئوا، وشبعت فتوهمت الجياع قد شبعوا.

وكان أحد الأغنياء عائدًا في موعد العشاء إلى منزله؛ حيث كانت تنتظره المآكل الطيبة، ولم يكن على شيء من الشهية بعد ما أصاب في الغداء من المأكل والمشرب، فاعترضه فقير متكفف، وطلب إليه الإحسان قائلًا: «أنا جائع، يا سيدي!» فهز الغني كتفيه، وقال في نفسه: «قاتله الله، هو يشعر بالجوع ويشكو.»

هكذا أكثرُنا يفهم الجوع – أعني الجوع في طوره الأول حين لا يتعدى الحاجة التي نشعر بها لتناول الطعام، أو عندما تطول هذه الحالة ولا نلبي شهيتنا، فنشعر ببعض انزعاج، فيقول الواحد منا على سبيل المزاح: «غنت عصافير بطني.»

أما في الواقع، فمن منكم يدري ما هو الجوع في معناه الحقيقي لا المجازي؟ من منكم يعرف الجوع الذي يمزق الأمعاء تمزيقًا، فلا تغني عصافير البطن، بل تنهش أنياب السغب الأحشاء نهشًا؟

كلكم يجهله، وعسى أن لا تعرفوه إلا اسمًا.

أما في سوريا ولبنان، فقد عرف الأهلون اليوم الجوع بأتَمِّ معانيه، عرفوا الجوع الذي يتحول إلى آلام مبرحة وعذاب لا يطاق.

عرفوا الجوع الذي ينتهي بالموت، فيقضي الإنسان وأمامه امرأته وأولاده، يتقدمونه، أو يلحقونه في مثل هذه الميتة الفظيعة.

هذا هو الجوع الذي تألفت اللجان لتلافيه أو لتخفيف وطأته.

هذا هو الجوع الذي نهض رجال المروءة والإنسانية لإنقاذ الضحايا الكثيرة من مخالبه، وقد امتدت تلك المخالب الحادة إلى جميع طبقات الشعب، فمددتم يدكم بالنجدة لتكسروا شِرَّتها وتثلموا حِدَّتها، ولأنتم كاسرون!

هذا هو الجوع الناشئ عن المجاعات، والذي أنا محدثكم عنه في هذا المساء بعد أن درسته من جميع وجوهه.

أسباب المجاعات الطبيعية والمفتعلة

لا شك في أن المجاعة بحد نفسها هي من أشد الآفات التي تنتاب بني الإنسان؛ لأنها لا تقتصر على بعض أفراد، بل هي إذا ضربت أطنابها في قطر من الأقطار،

تناولت أضرارها ذلك القطر بأكمله، فكانت عليه شديدة الضغط ثقيلة الوطء. يضاف إلى ذلك أنها غير محددة المدة ولا محصورة الأجل، فقد تطول شهورًا، وقد تطول سنوات، إذا لم تستأصل أسبابها وعللها الفاعلية أو الغائية. بل هي تجمع إلى لوعة الحاضر فجعة القلق بشأن المستقبل، وقد غَرُبَ عن أُفُقِه نجمُ العز، واحتجبت من سمائه شمس الأمل والرجاء.

وقد عرف الآدميون في تاريخهم الطويل هول تلك الآفة، وذهب مئات الألوف منهم ضحية المجاعات. على أننا اليوم إذا طرق آذاننا ذكر الجوع والمجاعة، يتبادر إلى ذهننا شيء بعيد العهد، يكاد يرجع إلى عصر الطوفان أو إلى الأزمنة المتناهية بالقِدَم، فلا يخطر لنا ببالٍ أن المجاعة ممكنة الوقوع في عصر البخار والكهرباء، وفي عهد ازدهار التضامن وعلم الاقتصاد.

والحقيقة أنه أصبح في وسع الإنسان اليوم مقاومة هذه الآفة أكثر من سواها من الآفات؛ لأنه كلما ازدادت أسباب المواصلات اتساعًا، واشتدت أواصر التضامن البشري إحكامًا، قلَّ خطر وقوع المجاعات في أنحاء العالم، وإن كانت هذه الأنحاء تختلف في خصب التربة وزكاء المنابت، ووفور العمران، وإذا كان بعض الأقطار قد أصيب في الأزمنة الحديثة بالمجاعة، كما حلَّ في بلاد المجر وغيرها من أمصار أوروبا أو أفريقيا أو آسيا أو أمريكا؛ فإن ذلك كان في الغالب معلولَ مقدماتٍ مدبَّرة، ونتيجةَ تدابيرَ موضوعة.

أما في الأحوال العادية فقد أصبح من الصعب تفشي المجاعة في بلد من البلدان – قلنا: إلا إذا كان الأمر مدَّبرًا – وذلك بفضل اتساع سبل المواصلات من خطوط حديدية تطوي القِفَار، وسفن بخارية تجتاز البحار، فتقرب هذه وتلك المسافات الشاسعة، وتربط بين أطراف البلاد القاصية. زد على ذلك روح المزاحمة التي دبت في التجارة، وسقوط الحواجز الجمركية في كثير من البلاد لتسهيل حركة التداول والتبادل في الواردات والصادرات، وضَعْ فوق كل ما تقدم التضامن الأدبي الذي تزداد رُبُطُه إحكامًا وتوثُّقًا مع ما قد ينتابها من التراخي في بعض الفترات، كما نرى ذلك إبان هذه الحرب الهائلة.

نتبين حقيقة ما قدمنا إذا ما عرفنا أسباب المجاعات:

وأهم هذه الأسباب قلة الحاصلات، تزيدها خطورةً أسبابٌ عرضية أو ثانوية، ولا يخفى أن ذلك ناشئ في أكثر الأحايين عن رداءة الأحوال الجوية في مختلف الفصول، بين سيلٍ مُغرق، أو قيظ محرق؛ كاشتداد المطر أو قلته، وما ينجم عن ذلك من الفيضان أو الجفاف، ونزول الثلج، واشتداد البرد، وتفشي الحشرات الفتاكة. قال ابن خلدون: «وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود، ولا على وتيرة واحدة؛ فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف، ويقل ويكثر، والزرع والثمار على نسبته.»[١]

وإذا كانت البلاد المصابة ضعيفةَ مواردِ الرزق من طبيعتها، سيئة النظام الحكومي، قليلة المواصلات مع جيرانها – أو مقطوعة المواصلات لأسباب طارئة – زاد ويلها، وتفاقم خَطْبها.

وإذا جاءت فوق ذلك الحرب الخارجية – أو الفتن الأهلية – عم البلاء والدمار، والحرب كما لا يخفى من أكبر أسباب الغلاء، ومن ثَمَّ من أكبر أسباب المجاعات؛ لأن الأيدي تنقبض عن الفَلْح، وتنصرف عن المحراث وآلات الزراعة والتعمير إلى السلاح وآلات التخريب والتدمير، فتعبث بالحاصل، وتعوق حركة الإنتاج، فيُضطر الأهلون إلى استنفاد المدَّخَر لديهم للبذر – وهو أمل المستقبل – فتظهر المجاعة، قهارة فتاكة، بأهول مظاهرها، وتُفضي إلى إهلاك الزرع والضرع.

وعلى هذه الكيفية تحولت أقطار زاهية زاهرة في الأزمنة الغابرة إلى صحاري مقفرة.

على أنه من الصعب أن تحل هذه الآفات دفعة واحدة في جميع أنحاء المعمور، فَتَعُمَّه من قطبه إلى قطبه، أو تشمل مسافات شاسعة من العالم لا يمكن الوصول إليها لإنجادها، فإن المواسم إذا أمحلت في بقعة من بقاع الأرض،

أقبلت عادةً في سواها، فيكون هنا إعاضةٌ مما هناك.

تاريخ المجاعات في الشرق والغرب قديمًا وحديثًا

وكثيرًا ما توافرت هذه الأسباب، كلها أو بعضها، في أعصر التاريخ الماضية – كما توافرت اليوم في سوريا ولبنان – فأحدثت مجاعات هائلة، وألَّفت للجوع تاريخًا حافلًا بالمصائب والرزايا.

تاريخ المجاعات – وللمجاعات تاريخ كسائر الآفات – سلسلة طويلة، دامية الحلقات، وآخر حلقاتها مجاعة سوريا.

وإذا كنا اليوم نحاول أن نلقي معًا نظرة على هذا التاريخ المفجع، فلكي نزداد تفهمًا لأحوال العمران والاجتماع، وإدراكًا لأصول التضامن الإنساني، فنستخلص من العلل والمعلولات عبرًا وعظات، والتاريخ أبو العبر.

أيها السادة!

إن النظر إلى بعيد، والتهيؤ لحوادث المستقبل، من أفضل فضائل الاجتماع في نظامه الحديث، فقد عاش الإنسان الأول في حالته الفطرية مهتمًّا ليومه غافلًا عن غده، فكانت المجاعات في قبائل البشر الأولين تتفشى لأصغر الأسباب، بل كان وجودها بينهم يكاد يكون مستمرًّا على رحب الأرض بسكانها القليلين، وعلى قلة مطالب السكان في ذلك الزمان. والتوراة – أقدم التواريخ – حافلة بالشواهد على ذلك. بل هذه أمريكا، التي تقري اليوم مئات الملايين من السكان عن بحبوحةٍ وَسَعَةٍ، كانت منذ قرنين فقط محطًّا للمجاعات، مع أن عدد أهلها يومئذ لم يكن يتجاوز الثلاثة ملايين.

وكان من نتيجة المجاعات قديمًا في الأقطار الهندية أن السكان الذين كانوا على عهد هيرودتس – في القرن الخامس قبل المسيح – يبلغون الخمسين مليونًا، أصبحوا بعد قرن واحد، على عهد حروب الإسكندر، ربع هذا العدد فقط.

أما في الصين فطالما فتكت المجاعات بالأهلين فتكًا ذريعًا، حتى قال عنها أحد المؤرخين القدماء: إنها «كانت متعهدة بكسح الفقراء.»

ونزلت المجاعات مرارًا بمصر، على عهد الكهنة والأسر الفرعونية الأولى، فإن أعمال الري وتوزيع مياه النيل التي عادت على البلاد بالخصب، لا يرجع عهدها إلى قبل الأسرة الفرعونية الرابعة – أي إلى عهد بناء أهرام الجيزة – وقد عبثت الأيام بجسور النيل فهدمتها، وأعاد بناءها رعمسيس الكبير، وجددها بعده البطالسة، فَوَقَوْا مصر وما يجاورها شر المجاعات.

ويؤخذ من رواية التوراة أن المجاعة هي التي دفعت إبراهيم الخليل إلى مصر: «وكان جوعٌ في الأرض، فهبط أبرام إلى مصر لينزل هناك إذا اشتد الجوع في الأرض»،[٢] والمجاعة أيضًا هي التي ساقت بني إسرائيل إلى مصر على عهد الأسرة السابعة عشرة سنة ١٩٠٠ق.م؛ إذ «قدم أهل الأرض بأسرها إلى مصر؛ ليمتاروا؛ لأن الجوع كان شديدًا في الأرض كلها»[٣] – وكان ذلك على أثر تفشي مجاعة هائلة – حتى «لم يكن خبز في جميع الأرض؛ لأن الجوع اشتد جدًّا حتى جُهِدَ أهلُ مصر وأرض كنعان من الجوع.»[٤] ولكن مصر نجت بحسن تدبير القيِّم على أمورها كما هو معروف.

وكان لعلماء المصريين القدماء دلائل أكيدة راهنة، يستنتجون منها إقبال المواسم وإمحالها، وما تفسير حلم فرعون الذي جاء به يوسف بن يعقوب عن سبع سني الجوع عقب سبع سني الشبع[٥] إلا من هذا القبيل، إذا تركنا جانبًا تأويل الأحلام والخوارق، فكانوا – استنادًا إلى هذه الدلائل – يخزنون ويتمونون، وكان المصريون قديمًا من أكثر الشعوب احتياطًا للمجاعات، فلم يقاسوا منها ما قاسى غيرهم، وكانوا في سني القحط يبيعون بأرفع الأثمان ما ادخروه من الميرة في سني الإقبال – وهذا ضرب من أعمال «البورصة» في تلك الأيام – حتى إن ثروة بعض ملوك تلك الأحقاب بلغت ما نعبر عنه الآن بمليارين أو يزيد.

على أنه كان لوفاء فيضان النيل ونقصه تأثير كبير في حالة البلاد الاقتصادية من حيث توافر الرخاء أو حلول الضيق والفاقة، وكثيرًا ما تفشت المجاعات بسبب ذلك، فحدث فيها من الفظائع الشيء الكثير، وكله مدون بالتفصيل في كتب التاريخ بعد الفتح العربي.[٦]

أما معاصرو قدماء المصريين فكانوا يعيشون حسب ما يتفق لهم:

فالفينيقيون — الذين خاضوا البحر يوم كان عصيًّا فأصبحوا حينذاك أسياد البحار كما هم الإنكليز اليوم — كانوا يجلبون حاجتهم من الغلال من بلاد أفريقيا.

وأما سائر الشعوب البرِّية، فيقدر علماء التاريخ أن المجاعة كانت تنتابهم بمعدل مرة كل ثلاث سنين، حتى إن المجاعة كانت تعد عند الإسرائيليين من الآفات الأهلية.

وإذا انتقلنا إلى الرومانيين نجدهم في بداية أمرهم رجال حرب وزراعة، لا يتركون سيف الغزو إلا ليقبضوا على محراث الزرع، فلم يكن للمجاعة من أجل ذلك مأخذ ببلادهم، ولكنهم لما أَثْرَوْا، استرسلوا في القصف والتهتك وعكفوا على اللذات، فحلَّ الترف عندهم محل شظف العيش، وقامت قصور الأغنياء والأشراف وحدائقها الغناء مقام الحقول في سهل «روما»، فتناقصت حاصلات البلاد، وأهملت الشئون الزراعية، وبات اعتماد «روما» في الامتيار على مستعمراتها الغنية، وأصبحت جزيرة «صقلية» أهراء روما، كما كانت من قبل أهراء اليونان وقرطاجة، ولما اتسعت حاجتهم وزاد خمولهم، أخذوا يستوردون الحنطة من مصر وشمالي أفريقيا بعدما استنزفت موارد «صقلية».

وكانت نفقات النقل باهظة بطبيعة الحال، لصعوبة المواصلات في تلك الأعصر، فارتفعت الأسعار ارتفاعًا أجهد الفقراء ومتوسطي الحال، فجاع الشعب، ومن المعروف أن الجوع مَفْسَدَة للناس، وأنه يولد العبودية، ولكن العبودية لا تُنقذ

من الجوع، فصار أحرار الرومان عبيدًا لمن يطعمهم، على حد المثل القائل: «أَجِعْ كلبك يتبعك.» وهكذا وقعوا في رق الاستعباد دون أن يأمنوا شر المجاعات، ففتكت بهم المرة تلو المرة مما يطول شرحه.

وعلى عهد حصار «طيطوس» لبيت المقدس؛ حيث كان قد اعتقل شعب اليهودية، حدثت مجاعة بلغ من شدتها أن المهاجمين الذين كانوا يقعون عند الأسوار كانوا طعامًا للأحياء، وآل الجوع بالقوم إلى نبش القبور وعجن رفات الموتى والعظام البالية للتقوت بها.

ويذكر المؤرخون من الأسباب التي آلت إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، استبداد الحكام، وعسف العمال في الولايات، وانحلال الرابطة القومية والعاطفة الوطنية، على أثر ما تطرق من الفساد إلى الأخلاق والآداب، ولكن معظمهم قد أهمل الجوع الذي قذف من غابات «سيتيا» و«جرمانيا» بتلك الشعوب التي انقضَّت برجالها ونسائها وعيالها على الأملاك الرومانية – والجوع يطرد الذئب من الغاب على حد المثل المأثور عند الفرنجة.

أجل، هو الجوع الذي دفع عصابات «أتيلا» البربرية من تخوم الصين إلى سواحل البحر الأسود، ومن سواحل البحر الأسود إلى شواطئ نهر الرين.

زحفت تلك الأمم كالسيل الجارف – والفاقة تسوقها والجوع يحدوها – من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ولم يقف هذا التيار إلا في القرن الخامس عشر مدة من الزمن، ثم عاد بعد ذلك فاجتاز الأطلنطيك.

وقد زادت ويلات الفتن الأهلية والحروب الخارجية هول المجاعات التي تفشت وراء هذه العصابات؛ لأنه إذا كان ينسب إلى «أتيلا» قوله: «إن الحشيش لا ينبت حيث يمر جوادي.» فيمكننا أن نقول: «إن سنابل القمح لم تنبت في الأرض التي وطئتها حوافر خيله.»

وهكذا توالت المجاعات حقبة تزيد على سبعة قرون، وزاد الحالة ضِغْثًا على

إبَّالة نظام الإقطاعيات في العصور الوسطى، فأُهملت شئون الزراعة؛ لأن العبد كان يزرع ويحصد غلةً تذهب إلى سيده، وكان الأسياد منصرفين إلى التقاتل. أما عندما كانت الأسباب الطبيعية تجيء معززة لهذه الأسباب الاجتماعية فإن الحالة كانت لا تطاق.

يروي لنا التاريخ أن المجاعة اشتدت في سنة ٥٤١ اشتدادًا زائدًا، ودامت ثلاث سنين. فكانت مراكب جمهوريات إيطاليا الجنوبية تأتي بالغلال اللازمة لسد الرمق في أوروبا من مصر وشواطئ أفريقيا.

وعلى عهد كلوفيس الثاني ملك الفرنجة اشتد الجوع حتى اضطر الملك إلى نزع سبائك الفضة عن ضريح «القديس دنيس» شفيع المملكة، فبيعت تلك السبائك، ووزعت قيمتها على المحتاجين. وظلت المجاعات تتوالى، وتختلف هولًا وشدة بسبب نظام البلاد، حتى بلغ منها في حوالي سنة ٨٥٠ أن الأمهات فتكن بأولادهن واقتتن بلحومهم، وتجددت هذه الفظائع أكثر من مرة على ما يؤخذ من روايات الذين دونوا حوادث تلك الأيام.

وكان من آفات المجاعة في النصف الأخير من القرن التاسع أن الناس كانوا يقتتلون، ويتغذى القاتل من لحم المقتول، وكثيرًا ما تركت جثث الموتى على قارعة الطريق لعدم وجود من يواريها في التراب.

وكان مستهل القرن الحادي عشر ١٠٠٣–١٠٠٨ عهد مجاعة، زادها فظاعةً تفشي الطاعون، فكان المصابون يلحدون أحياء مع الموتى، ويقول أحد[٧] مؤرخي ذلك
الزمان: «إن الناس كانت تقتات بالحشرات والحيوانات القذرة ولحم البشر، وكان الأولاد يأكلون آباءهم، والآباء يأكلون أولادهم.»

ومن سنة ١٠١٠ إلى ١٠١٤، ومن ١٠٢١ إلى ١٠٢٩، بلغ الجوع من سكان أوروبا أنهم كانوا يأكلون لحم الكلاب والفئران وجثث الموتى، وكان قطاع الطرق يكمنون للناس فيقتلونهم ويقتسمون أعضاءهم للتغذي بها قبل اقتسام الغنيمة، على خلاف ما قال فارس بني عبس:

لِيَ النفوسُ وللطيرِ اللحومُ وَلِلْ

وَحْشِ العظامُ وللخيالةِ السَّلَبُ

وكان هناك عصابات تستدرج الأطفال الجياع إلى خارج المنازل، حتى إذا ما تمكنوا منهم، ذبحوهم وأكلوهم. قال أحد الرواة: «إن العيشة في الصحراء بين الكواسر الضارية أصبحت في ذلك العهد أكثر أمنًا وطمأنينة منها بين الآدميين الجائعين.» وقد بيع لحم البشر علانية في الأسواق.

وخلاصة تاريخ الإقطاعيات في أوروبا من هذا القبيل: حروب وفتن، وثورات ومنازعات، يليها إحراق المزروعات وإتلاف الحاصلات وإضراب عن حرث الأرض، فيلي ذلك ضيق ومجاعات، ولا بِدْعَ؛ فقد رأينا أن الحروب وانتقاض الرعايا من أكبر أسباب المجاعات.

•••

أما العرب فكثيرًا ما نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات، فنالت منهم، يدلنا على ذلك ما في لسانهم من المترادفات الجمة عن القحط والجدب، وعن الجوع وأنواعه وأطواره وطبقاته: من الجوع، إلى الغَرَث، إلى السَّغَب، إلى اللَّغَب، إلى الخَرَص، إلى الخَمَص، إلى الطَّوَى، إلى الخَوَى … إلى غير ما هنالك من المفردات والجمل التي تدل على اعتياد أهل البادية مثل هذه الحال، حتى إنه كثيرًا ما حق لجائعهم أن يقول مع عاشقهم:

إنَّ في بُرْدي جسمًا ناحلًا

لو توكأت عليه لانهدم

أو أن يردد مع مُتَيَّمهم:

كفى بجسمي نحولًا أنني رجل

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ولدينا في هذا الباب أمثلة ونوادر كثيرة، نذكر منها قول ذلك العبد لسيده وقد باعه لسد حاجته:

لحاكَ اللّه! هل مثلي يُباع

لكيما تشبع الكَرِشُ الجياع

وحكاية «كلبة حومل» التي أكلت ذَنَبَها من شدة الجوع، فضرب بها المثل: «أجوع من كلبة حومل.»

وحكاية ناقة ذلك الأعرابي التي جاعت:

وقد هزلت حتى بدا من هزالها

كلاها وحتى سامها كل مفلس

على أن ما كان عليه العرب في بداية أمرهم من شظف العيش، والتجافي عن الملاذِّ، والضرب في البر الأفيح، وعلى الأخص سكان البادية وأهل الوبر منهم، كان مما يقيهم شر المجاعات؛ لأن الهالكين بالجوع على ما قال ابن خلدون في مقدمته: «إنما يقتلهم الشبع المعتاد السابق، لا الجوع الحادث اللاحق.»

وجاء في «العقد الفريد»: «لأمر ما طالت أعمار الرهبان، وصحت أبدان العربان، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد.»

وكل يعرف قول تلك الأعرابية الدال على منتهى القناعة:

وأكل كُسَيْرَةٍ في كسر بيتي

أحب إلي من أكل الصنوف

وزد على ذلك أن العربي من فطرته مِضْيَاف مِعْطَاء، بَذُولٌ وَهُوبٌ، قال حسان

بن ثابت:

وإني لَمُعْطٍ ما وجدتُ، وقائل

لِمُوقِدِ ناري ليلة الريح: أوقد!

وقد عرف الجميع ما طبع عليه العرب من السماحة والجود، حتى قيل: «لقد يكون السخاء تسعة في العرب وواحدًا في الناس.»[٨] وكان الكرم ينتهي بهم إلى أن يقوم لعشائرهم منادٍ في الأسواق ينادي في الناس: «هل من جائع فنطعمه، أو خائف فنؤمنه، أو راحل فنحمله.»[٩] وبمثل ذلك قال شاعرهم:

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له

أكيلًا فإني لست آكله وحدي

وقد اشتهر منهم من ضُرب المثل بسخائه وعطائه، كحاتم طيئ، وكعب بن مامة، ومعن بن زائدة، وكثيرين غيرهم ممن لا متسع لذكرهم، فإن من زعم أن فلانًا أكرمُهم فقد ظلمهم جميعًا.

ناهيك بما شغف به العربي من السعي وراء حسن الذكر وطيب الأحدوثة، حتى قال الشاعر: «ويبقى من المال الأحاديث والذكر.»

ولم يكن من سبيل لكسب هذا الذكر إلا البذل والسخاء، حتى إن الوصف بالبخل وحبس اليد كان من أشد الهجو إيلامًا في النفوس. قال الأصمعي: أهجى بيت للعرب قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم

وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

لذلك طالما تغنى شعراؤهم بالكرم وبسط اليد، ومدحوا الكرماء الأسخياء بما

يملأ الصفحات الطوال.

وإننا لذاكرون نادرة من نوادر أحد أجوادهم الأعلام في الجاهلية، فقد جمعت وصف المجاعة وسماحة العرب:

حدثت نوار امرأة حاتم الطائي قالت: أصابتنا سَنَةٌ اقشعرَّت لها الأرض واغبرَّ أفق السماء، وراحت الإبل حدباء حدابير،[١٠] وضنَّت المراضع على أولادها، فما تَبِضُّ بقطرة، وأيقنَّا بالهلاك، فوالله إنا لفي ليلة صِنَّبْرٍ بعيدةٍ ما بين الطرفين؛ إذ تضاغى[١١] صبيتنا جوعًا: عبد الله، وعَدِيٌّ، وسفَّانة، فقام حاتم إلى الصبيين، وقمت أنا إلى الصبية، فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل، وأقبل يعللني بالحديث، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كِسْرَ البيت ثم عاد، فقال: «من هذا؟» قالت: «جارتك فلانة، أتيتك من عند صِبْية يتعاوون عواء الذئاب، فما وجدت مُعَوَّلًا إلا عليك يا أبا عدي.» فقال: «أعجليهم، فقد أشبعك الله وإياهم!» فأقبلت المرأة تحمل اثنين، ويمشي جنائبها أربعة، كأنها نعامة حولها رئالها، فقام إلى فرسه فوجأ لَبَّتَه بمُديةٍ فَخَرَّ. ثم كشطه عن جلده ودفع المدية إلى المرأة وقال لها: «شأنك!» فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل. ثم جعل يمشي في الحي يأتيهم بيتًا بيتًا فيقول: «هُبُّوا أيها القوم! عليكم بالنار!» فاجتمعوا، والتفع في ثوبه ناحيةً ينظر إلينا، فلا والله إنْ ذاق منه مُزعة وإنه لأحوج إليه منا، فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظمٌ وحافر، فأنشأ حاتم يقول:

مهلًا نوار أقِلِّي اللوم والعَذَلا

ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

ولا تقولي لمال كنتُ مُهلكه

مهلًا! وإن كنتُ أعطي البحر والجبلا

يرى البخيل سبيلَ المال واحدة

إن الجوَاد يرى في ماله سُبُلا

إن البخيل إذا ما مات يتبعه

سوء الثناء ويحوي الوارث الإبلا

لا تعذليني على مال وصلت به

رحمًا وخير سبيل المال ما وَصَلا

وأمثال هذه النوادر جمة في تاريخ العرب، نورد منها حادثتين وقعتا في مصر:[١٢]

كان مهنَّا بن علوان بن علي بن حبيب بن نائل جوادًا كريمًا، وقد طرقته ضيوف في شتاء وليس عنده حطب يوقد لطعام يصنعه لهم، فأوقد أحمال بز كانت عنده، وقام بواجب الضيافة.

وكان ظريف بن بكتوت الملقب بزين الدولة من أكرم العرب، واتفق له أن وقع غلاء وقحط، فكان في ضيافته اثنا عشر ألف إنسان يأكلون عنده كل يوم، وكان يهشم الثريد في المراكب بدلًا من الجفان لكفاية اللاجئين إليه، فما أحراه بأن يسمى «هاشمًا الثاني» وإن كان من «بني هلبا».

…

أيها السادة، لو عدنا إلى أوروبا ولاحقنا السلسلة التي يتألف منها تاريخ المجاعات، وصلنا بعد حلقات كثيرة، إلى المجاعة التي تفشت أثناء حرب الثلاثين سنة ١٦١٨–١٦٤٨، فإنها قرضت خمسي سكان ألمانيا، ولم تُبْقِ من سكان مقاطعة «اللورين» البالغين ١٢٠٠٠٠٠ نسمة إلا ٥٠٠٠٠، وذهب الباقون ضحية الجوع وفظائع المتقاتلين. ومما يروى عن هول تلك المجاعة أن امرأة قتلت طفلًا

وقددت لحمه مؤنة لطعامها، وأن طبيبًا دُعي لبتر ذراع أحد الجرحى، فطلب أجرة عن عمله الذراع المبتورة، وأكلها!

وفي القرن الثامن عشر توالت المجاعات في أوروبا، حتى إبان الثورة الفرنسوية الكبرى. ومن هذه المجاعات ما كان حقيقيًّا ناجمًا عن أسباب طبيعية، ومنها ما كان مفتعلًا بتدبير أولي الأمر، لإدراك غايات سياسية أو لإنجاح مضاربات مالية مما لا مجال لذكره بالتفصيل. ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ما عُرف في التاريخ باسم «وثيقة المجاعة»،[١٣] وهي كناية عن مؤامرة واسعة، اشترك فيها الوزراء ورجال البلاط وكبار المملكة على عهد لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر، فكانوا يحتكرون الغلال ويخزنونها في الخارج، حتى إذا ما تم لهم ما أرادوا حددوا لها أسعارًا فاحشة كانت تملأ خزائنهم ذهبًا وتقضي على الشعب البائس قضاء مبرمًا.

وإلى ذلك العهد ترجع الكلمة المشهورة التي قالتها «ماري أنطوانت» ابنة فرنسيس الأول إمبراطور النمسا وزوجة لويس السادس عشر، فإنها سمعت يومًا صراخ الشعب وصخبه، فسألت عن السبب؟ فقيل لها: «إن الشعب يطلب خبزًا، فليس عنده خبز.» فأجابت: «فليأكل كعكًا.»

وقد فاتها – سامحها الله – أن الشعب إذا لم يجد خبزًا لا يأكل كعكًا، بل يشرب دمًا فينفجر كالبركان، فيقوِّض العروش ويطيح بالرءوس، ولو كانت تحمل التيجان!

أما في عصرنا فقد ترقى علم الاقتصاد – كما قدمنا القول – واتسع نطاق المواصلات، وازدادت حركة التبادل بين أقطار العالم، فلم يبقَ ما يُخشى معه من حدوث مجاعات قارضة. على أنه قد يُصيب اليومَ أيضًا بعضَ الأمصار سنو قحطٍ ومَحْل ينجم عنها غلاء في أسعار المعيشة ووقوف في حركة التجارة والصناعة، فيؤثر ذلك كثيرًا في طبقة العمال وعامة الشعب، فتنشأ أزمات غذائية، إن كانت تختلف عن المجاعات القديمة في شكلها، فقلما تختلف عنها

في نتائجها، ومثل هذه الأزمات كثيرة في الأعصر الحديثة حتى في عصرنا العشرين. لذلك قال لامنيه[١٤] ما معناه: «كان الأرقاء بالأمس يقيدون بالسلاسل، ويجلدون بالسياط، أما أرقاء اليوم فالجوع قيدهم وسوطهم.»

وقد حدث بعض مجاعات في القرن الغابر، أهمها مجاعة الجزائر سنة ١٨٦٨، التي أودت بثلاثمائة ألف نفس، ومجاعة الهند ١٨٩٩-١٩٠٠ التي تركت ما ينيف على الخمسين مليونًا من الأهلين عرضة للجوع، ولم تستطع الحكومة أن تُنجد منهم في اليوم أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون.

وآخر حلقة من هذه السلسلة الدامية هي المجاعة التي نهضنا لتخفيف وطأتها، فنحن اليوم كاتبون صفحة جديدة نضمها إلى صفحات تاريخ بني البشر المدوَّن لويلاتهم ونكباتهم: هي مجاعة سوريا ولبنان التي نحن ذاكرون فيما بعد!

ما هو الجوع؟

أيها السادة!

من هذه النبذة التاريخية التي اختصرناها جهد المستطاع رأيتم اشتداد هول المجاعات وما تجره من الويلات.

فما هو إذن الجوع الذي يفضي إلى تأكل الآدميين؟ والذي قال عنه هوميرس: «إن لا شيء أغلب منه ولا أقهر»؟ والذي قال عنه المثل العربي: «إنه كافر»؟

وقال عنه الفرنجة في أمثالهم: «إنه يطرد الذئب من الغاب»؟ …

الجوع في الميثولوجية

الأقدمون ألَّهوا كل شيء، فنصبوا لكل شيء إلهًا أو إلاهة، حتى للشر والخير ولسائر النعم والآفات. لذلك لم تخلُ «الميثولوجية» عندهم من إلاهة للمجاعة.

وكانت هذه الإلاهة في عرفهم ابنة الليالي السود، ولَّدتها الليالي من نفسها، وكانوا يمثلونها بشكل امرأة هزيلة الجسم، نحيلة البدن، قد ذهب لحمها وذاب شحمها وشحب لونها، فبدت عجفاء جرداء، مقوسة الظهر، بارزة العظام، مسترخية المفاصل، لاصبة الجلد، مجوَّرة الصدغين، غائرة العينين، ممسوحة الثديين، ضامرة البطن، ناسلة الفخذين … وكأن هذا الشبح المخيف لم يكفِ في نظرهم لتمثيل حقيقة المجاعة، فصوروها مغلولة اليدين، رامزين بذلك إلى عجزها عن إصلاح ما بها.

الجوع في الشعر والأدب

هذه صورة الجوع في «الميثولوجية»، وقد صوره الشاعر «فرجيليوس» في النشيد السادس من «الإنياذة»[١٥] وجعل مقره على مدخل الجحيم، قال:

… في فناء الجحيم تسكن الهموم والحسرات المُرَّة، وإلى جانبها الأسقام المضنية والشيخوخة الكئيبة، وتنتصب بقربها الفاقة بأسمالها البالية، والموت الظلوم، وأخوه النوم، مع إله الحرب، والعمل المتأوه، والرعب المذعور، ويسكن هناك أيضًا «الجوع» وفرائصه ترتعد من هول الأفكار الفظيعة التي يوحيها إلى البشر …

مشيرًا بذلك إلى أن الجوع يقود الناس إلى أفظع الجرائم، وذلك ما رأيناه في تاريخ المجاعات، وما عبر عنه فيكتور هوجو؛ إذ قال: «الجوع يفتح في صدر الشعب ثغرة يملؤها حقدًا وبغضًا.»

على أن أبلغ من وصف الجوع فيما قرأنا قد يكون الشاعر «أوفيدس»[١٦] في حكاية «إرزيختون»، وهي أسطورة من أساطير الأقدمين، لكنها جمعت إلى قوة الخيال بلاغة الحقيقة، قال:

جلب إرزيختون على نفسه غضب المعبودة «سرس» إلاهة الحصاد بتدنيسه الغاب المقدس، فلم ترَ هذه عقابًا يعدل فظاعة جرم الجاني إلا تسليمه إلى

بـراثن إلاهـة الجـوع، ولكـن الجـوع وسـرس إلاهـة الحصـاد لا يوجـدان معًا، فاستقدمت سرس إحدى العذارى، وعـهدت إليـها فـي مـا يـأتي: فـي أقاصي «سيتيا» في الأرض التي صلَّبها الثلج فلا ينبت فيها الزرع، في ذلك القفر البلقع الـذي لا ثمـر فيـه ولا ظـل ولا خضـرة، تجـدين واديًا اتخـذته الحمـى والبـرد والقشعريرة والفاقة مسكنًا لها مع «الجوع» الطاوي الحشا، فمُرِي الجوعَ يَحُلَّ في صدر الكافر الجاني، ويتغلب فيه على مواهبي، ويعبث بقواي المغذية، فلا تزيده إلا ألمًا …

صـدعت العـذراء بـأمر سيدتها، وشخصت إلـى جبـل «القوقـاز» تبحـث عـن «الجوع»، فوجدته يزحف على صخور في لحف الجبل، يقضم بعض أعشاب ضئيلة في شق الحجر، وهو بادي العظام، حتى إنها لتعد عظمة عظمة من خلال جلده الشفاف، وقد ستر شعره الأشعث عينيه المطفأتين.

تلقت «إلاهة الجوع» أمر سرس، فهرولت تحت جنح الظلام إلى منزل الجاني، فانطرحت على سريره، وتسربت في فراشه تقبله نافثة في فيه سمها، وتطوقه بذراعيها، وتضمه إلى صدرها، موقدة في أحشائه نار السغب … فعلت وقفلت راجعـة إلـى بلادهـا المقفرة، هاجرة الربوع المخصبة التي لا تستطيع العيش فيها.

أما الجاني فلم يلبث أن أفاق من سباته، وهو يشعر بجوع شديد … حاول سد ذلـك الجـوع بكـل أنـواع المأكل والمشرب، فكان يفتـح فـاه ويُطْبِقُه عبثًا كمن يلتقـم الـهواء. وكـانت أسـنانه تصطك ماضغة سدًى، وبلعومه المتلظِّي يزدرد الطعام ازدرادًا دون جدوى، والجوع في أحشائه يشبه الكَلَب، كأن نسرًا ينهشه نهشًا … بسطت الموائد، وقد جمعت من جميع ما حوى الغاب والهواء والماء من وحش وطير وسمك، فكان يأكل ومعدته تظل فارغة كالهاوية لا قرار لها، أو كالأوقيانس تصب فيه مياه العالم وهو أبدًا ظمآن، أو كالنار تزداد تأججًا كلما زادت طعامًا، وانتهت الحالة بهذا التَّعِس المستجيع[١٧] أن أكل نفسه …

ووصف أيضًا دانتي الجوع وصفًا بليغًا في «الرواية الإلهية»،[18] فمثل «أوجولان» في الجحيم ينهش رأس عدوه، وكان هذا في حياته قد سجنه في «برج الجوع» حيث مات جوعًا مع أولاده الأربعة.

الجوع في الفنون الجميلة

وقد طالما جارت ريشة المصورين قلم الشعراء في وصف الجوع وويلاته، فتناول المصورون والنحاتون حادثة «أوجولان» المارِّ ذكرها فمثلوها أبدع تمثيل بالحجر والألوان.

وأذكر من هذا القبيل أيضًا الصورة الجميلة بهول حقيقتها التي وضعها المصور «وبرتز»[19] وقد أراد أن يمثل فيها الجوع وما يليه من جنون وجناية. ليست هذه الصورة المروعة لدي فأعرضها عليكم؛ لذلك أكتفي بوصفها على قدر ما تقوم الألفاظ في التصوير مقام الألوان:

في كوخ حقير متداعي الأركان، امرأة جاثمة على الحضيض، في يدها اليمنى مدية تقطر دمًا، ويدها اليسرى تسند رأسها وقد عصبته خرقة بالية. عينان جاحظتان حرقت مآقيها ما ذرفتا من الدموع. أما الآن فلا دمع يَسُحُّ منهما، ولكنهما ملتهبتان كجذوة نار. ترى على ثغرها الجاف ضحكة البله والجنون تُقَلِّص شفتيها اليابستين. إذا تفرست فيها ميزت كتلة مخضبة بالدم في حجرها: هي جثة مشوهة، جثة طفل صغير، جثة طفلها … آه! إن هذه الشقية وقد أفقدها الجوع الرشد، قطَّعت منذ هنيهة الطفل الذي كان متعلقًا بثديها الناضب … بقرب المجنونة قِدْر تحتها قطعةُ كرسيٍّ وأطمارٌ باليةٌ تشتعل، ومن القِدْر برزت رِجْل طفل، رجل طفلها … إن هذا المشهد يزيد هولًا وفظاعة على كل ما خطر ببال دانتي أو شكسبير: مشهد أم جُنَّت من الجوع، فجلست تطبخ أعضاء ثمرة أحشائها وفلذة كبدها، لتسد جوعها الذي لا يطاق، وكأن راسم هذه الصورة قد شاء أن يهزأ بالهيئة الاجتماعية الظالمة، فصور عند قدمي هذه المسكينة ورقة ملقاة على الحضيض يعلوها طابع الحكومة وقد كتب عليها

«الضرائب الأميرية».

رأيتم مما ذكرت كيف تبارت قرائح الشعراء وأرباب الفنون الجميلة في وصف الجوع، ولا يتبادرن إلى ذهن أحد أن ذلك إنما هو نتيجة قرائح متهيجة ولَّدت مثل هذه الصور والأوصاف. نعم، إن أصحاب الخيال كثيرًا ما يغالون في تصوير الحقيقة ترسيخًا لها في الأذهان لإدراك غاية نبيلة، ولكنهم في الموضوع الذي نحن فيه ظلوا دون تلك الحقيقة مع كل ما أوحته المخيلة إلى قلمهم وريشتهم، كما سترون من وصف تلك الحقيقة مجردًا عن كل تنميق. لذلك ها أنا أترك وصف الجوع كما تصوره الأقدمون في ميثولوجيتهم، أو كما تمثله الشعراء والمصورون، فنحن في عصر العلم، عصر الحقائق الراهنة التي لا تدع مجالًا للخيال، فهيا بنا نرى ما هو الجوع في الكتب الطبية والموسوعات العلمية.

وهذا هو بحثنا في الجوع من وجهته الفسيولوجية.

تعريف الجوع فسيولوجيًّا

الجوع شعور يصعب تعريفه تمامًا، وهو ليس بالمزعج في أول أمره، بل هو إحساس بالحاجة إلى غذاء يعتاض به الإنسان مما خسر من القوى، وهو ناشئ عن فراغ المعدة من الأطعمة التي تمكنها من القيام بوظيفتها الطبيعية، فهو من هذه الوجهة دافع غريزي أكثر منه شعور حقيقي.

يشعر الإنسان بالجوع في مواعيد منتظمة، وهناك ظروف جمة لها تأثير كبير في هذا الشعور، كالسن والنوع والعادات؛ فالأحداث مثلًا لا يحتاجون فقط إلى تجديد قواهم، وتعويض ما يفقدونه بالحركة، بل هم أيضًا بحاجة إلى تنمية أعضائهم، فيشعرون، والحالة هذه، بالجوع – أي بالحاجة إلى الطعام – أكثر من البالغين، ولا يصبرون صبر أولئك على الامتناع عن الغذاء، ويقال مثل ذلك عن الناقهين الذين لا بد لهم من تعويض ما فقدوه بالمرض والحِمْيَة.

ولعادة تناول الطعام في مواعيد مقررة تأثير أيضًا في الشعور بهذه الحاجة إلى التغذية، كما أن للحالة الجوية مثل هذا التأثير: ففي أيام الحر لا يحتاج جسمنا إلى توليد مقدار الحرارة الذي يحتاج إلى توليده إبان البرد؛ لأن ما نحرقه من «الكربون» المأخوذ من الأغذية وأنسجة الجسم يكون أقل، فتتجدد الأنسجة ببطء، وتكون الحاجة إلى تعويضها أقل، فيكون الشعور بالجوع صيفًا دونه شتاء.

كذلك الرياضة البدنية تساعد على تنشيط الحركة الغذائية فتزداد الشهية، كما أن هذه الحركة تتباطأ وتتوانى في ساعات الراحة، فيتباطأ العمل العضوي، فيقل الاحتياج إلى تحليل ذرات العناصر الجسمية، وتنقص الحاجة من ثم إلى تعويضها بالغذاء.

وعليه يصح القول بوجه عام: إن الجوع يكون عادة بنسبة نشاط الحركة الغذائية وتباطؤها، فنشعر به عندما تكون المعدة فارغة، ويكون الجسم قد امتص الحاصل من هضم آخر طعام تناولناه.

مركز الجوع

وإذا كان من الصعب، كما رأينا، تحديد الجوع تمامًا، فمن الصعب أيضًا تحديد مركز هذا الشعور من الجسم، خلافًا لما يظهر لأول نظرة من أن مركزه في المعدة، وقد تضاربت آراء الفسيولوجيين في هذا الموضوع: فذهب بعضهم إلى أن مركز الإحساس بالجوع في الفم والبلعوم، حتى كثيرًا ما شوهد الجائع يلوك حصاة يفيض معها لعابه فيسد جوعه مؤقتًا، ولكن، إنْ ذلك إلا عُلالة يتعلل بها مدة قصيرة، وذهب آخرون – وهو الفريق الأكبر – إلى أن مركز الجوع في المعدة، بدليل أن إدخال الطعام إليها يزيل عادة هذا الشعور. غير أنه ليس من سداد الرأي على ما يظهر، الاستناد إلى هذا البرهان فقط للجزم بأن الجوع مركزه المعدة؛ لأنه كثيرًا ما يزول الجوع بإدخال مادة مغذية إلى الدم، ولو كان عن غير طريق المعدة، كالحقن تحت الجلد مثلًا؛ لأن المرجح الذي يدل عليه

الاستقراء أن هذا الشعور ناجم عن نقص المواد المغذية في الدم، فيزول إذن بسد هذا النقص، سواء أكان عن طريق المعدة أو عن غير طريقها، وللجهاز العصبي خواص تعلل هذه الظاهرة، فإن إحساس الأعصاب المحيطية قد يسكن ويزيل إحساسًا ناشئًا عن الأعصاب المركزية: فالأفيون والتبغ مثلًا يؤثران في الجهاز العصبي، فيزيلان الشعور بالجوع.

وعليه، فالأصح أن يقال: إن الشعور بالجوع ناشئ عن مجموع طبيعة الجسم، وللمعدة مشاركة عظيمة فيه؛ لأن النقص في تجديد المواد المغذية في الدم يؤثر في أعصاب المعدة أكثر من تأثيره في أعصاب سائر الأعضاء، فيظهر هذا الشعور فيها أكثر منه في باقي الجسم.

كيف يموت الإنسان جوعًا؟

ولكن ماذا يهم هذا الاختلاف في تحديد ماهية الجوع وتعيين مركز الشعور به ما دامت هذه الحالة، إذا طالت، تؤدي إلى الموت، وقد مات الملايين بها، كما رأينا في التاريخ، ويموت بها اليوم في سوريا ولبنان عشرات الألوف.

وقد وصفت كتب الفسيولوجيا درجات الجوع المفضية إلى الموت، قالت ما مؤداه:«إن هذا الشعور لذيذ في بداية الحال، وهو ما أطلقوا عليه اسم «شهية» أو «قابلية»، فإذا طال يصبح مزعجًا، ثم يخيل أن الجوع قد هدأ بعد فوات الوقت المعتاد لتناول الطعام، ولكنه لا يلبث أن يعود ثانية أشد قوة وتأثيرًا وتضورًا، فيصبح مؤلمًا، فيجف اللسان، وتبرد الأطراف، وتبطؤ حركة القلب، ويضعف النبض، ويتمدد الصدر بعناء، وتهبط حرارة الجلد، فيسرع إلى المِعَى الانكماش واليبس، ويتطرق إلى الجسم الوهن والضعف، وإذا استمرت هذه الحال، يصيب الإنسان نوع من الهذيان التهيجي، فيفقد الإدراك، وتئول به الحال إلى أعمال ترتجف منها الطبيعة البشرية، كما أنها تدل على وهن تلك الطبيعة، فيلتهم المصاب ما ينفر منه عادة كالحشرات والورق، بل إنه يسف التراب سفًّا، بل يأكل الإنسان أخاه الإنسان.

ويحدث في الوقت نفسه تغير عميم في نظام الجسم: فيعرو الجائع أو المجوع غشيان واضطرابات عصبية، ويتحول الهذيان إلى ضعف في القوى العقلية ينتهي بالجنون. أما الجسم فيصبح من جراء الهزال أشبه شيء بقفص عظام، ويبات عرضة لجميع الأمراض، إلى أن تنتهي هذه الحالة بتلاشي جميع القوى؛ أي بالموت.

وقال فريق من العلماء: إن الموت في هذه الحالة ينشأ عن فقد الحرارة الحيوية، لا عن الجوع نفسه، فإن الحرارة تنخفض بسرعة في أول الأمر، ثم تتباطأ في انخفاضها، ثم تعود إلى الهبوط تدريجًا، حتى تنخفض بغتة قبيل الموت.

وقد تبين بعض الباحثين أن الذين يموتون جوعًا يكونون قد فقدوا ٩٧ في المائة من الشحم، و٣٠ في المائة من الجهاز العضلي، و٥٠ في المائة من الكبد والطحال. أما القلب والجهاز العصبي فيكادان لا يفقدان شيئًا، وسلامتهما هي التي تحفظ حياة الجائع، ومتى بدأ النقص يتطرق إليهما، فالموت حالٌّ لا محالة. أما هذا الفرق في ما تفقده الأعضاء أثناء الصيام الطويل، فيرجع إلى التباين في قوة مقاومة العناصر التي يتألف منها كل عضو، أو إلى حدوث نزاع حقيقي بين خلايا الأنسجة المختلفة في الجسم، فيلتهم بعضها المواد الاحتياطية من الغذاء الموجود في الجسم بسرعة تزيد على البعض الآخر، حتى إن هذه الخلايا، متى فرغ الغذاء الاحتياطي، تتغذى من الخلايا التي تكون أضعف منها، وهذا ما هو معروف بالنزاع الحيوي.

وتختلف مدة الصبر على الصيام في الحيوانات: فمنها – كالخنزير الهندي – من لا يحتمل الجوع أكثر من ستة أيام، ومنها – كالكلب – يصوم ثلاثين يومًا ونيفًا، والمسلَّم به أن الإنسان يصبر على الطوى مدة عشرين يومًا قد تقصر وقد تطول حسب الأحوال والظروف، فقد تقصر مثلًا إذا زادت حركة الجهاز العضلي أو العصبي، فزادت في استنفاد عناصر الأنسجة، وتطول بالراحة التامة، وفي بعض الحالات العصبية التي تخف فيها حركة الاحتراق، وهذا

سبب انقطاع بعض المصابين بالهستيريا عن الأكل مدة طويلة، وصبر «فقراء» الهند المتصوفين على التَّجَوُّع[٢٠] والامتناع عن الغذاء أيامًا كثيرة، ولا حاجة إلى القول: إن شرب الماء أو تناول بعض ما يمسك الرمق لمما يساعد على احتمال الصيام مدة أطول.

وهناك نوع من الجوع يسميه علماء الفرنجة «بولميا»[٢١] — والكلمة يونانية الأصل معناها «جوع البقر» — وقد أطلق عليه العرب أيضًا اسم «الجوع البقري» أو «الجوع الكلبي»، وعرفوه أنه مرض في المعدة ناشئ عن أخلاط مرارية يكاد صاحبه لا يشبع، وإذا شبع فما أقرب ما يعاوده الجوع، وقد مر وصف ما يشبه ذلك في حكاية إرزيختون.

…

قال الشاعر:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تنوعت الأسباب، والموت واحد

قول صحيحٌ أيها السادة، بمعنى أن حكم الموت عامٌّ شاملٌ لكلِّ كائنٍ حيٍّ، صحيحٌ بمعنى أن الموت في جميع الأحوال واحد، وهو انفصال نسمة الحياة عن مادة الجسد، ولكنه غير صحيح بمعنى أن جميع الميتات واحدة.

فهل — بعد ما وصفت — أفظع وأشنع من الموت جوعًا، لا أعتقد ذلك؛ فالموت شنقًا، والموت غرقًا، والموت رميًا بالرصاص، كله موجع مؤلم؛ إذ لا شيء أمرُّ من الموت، ولكن — إن هي إلا بضع دقائق تنقضي مهما اشتد ألمها وعَظُمَ هولها. أما الموت جوعًا فهو موت طويل، بطيء، مستمر، يموت الإنسان به عضوًا عضوًا، ويتلاشى ذرة ذرة في كل دقيقة، فهو نزع طويل، وألم مبرح، واحتضار بطيء الأجل.

قال عروة الصعاليك: «وكل منايا النفس خير من الهزل» – أي من الجوع.

وقد قضت «الملايين» في هذه الحرب الطاحنة، فلم تستثر منيتهم من اللوعة والانقباض ما استثار موت «الآلاف» فقط يقضون تجويعًا؛ لأن الموت في ميادين القتال يحلو للمرء، وهو يذود عن حريته ووطنه وذويه، فيموت وهو منتش بخمرة المجد والفخار، وأين ذلك من الذي يتلاشى في عقر داره أو على قارعة الطريق، ويزيده ألمًا مرأى امرأته وأولاده، وقد تقدمت حالتهم حالته، فيعرف ما ينتظره في الغد من الأوجاع، ومعروف أن توقع البلية كثيرًا ما يكون شرًّا من وقوعها.

مجاعة سوريا ولبنان

أيها السادة!

آن لي أن أنتقل من هذه الجولة في عالم التاريخ والأدب والعلم، إلى ذكر مجاعة سوريا ولبنان، وهيَ المجاعة التي تشغلنا الآن، وتصدعنا أنباؤها في كل يوم.

لا أطيل عليكم وصف ما آلت إليه الحال في تلك الربوع العزيزة، فقد عرفتموها إجمالًا وتفصيلًا، بل هي مدار حديثكم نهارًا وسمركم ليلًا، وشغلكم الشاغل في غُدُوِّكم ورواحكم.

إن سوريا ولبنان لم يتحولا إلى ميدان قتال تجتاحه الجيوش ويتطاحن فيه الجنود، فيخدده الحديد وتتأكله النار، ولكن جميع المنافذ قد سُدَّت بوجه هاتيك البلاد، فباتت كالعصفور المكتوف في القفص الخالي من الحب، وقد زاد هول حالتها أن حلت فيها أرجال الجراد الفتاك ردحًا من الزمن، فهلك الزرع والضرع، واستحكمت حلقات الضيق في جميع أنحاء البلاد، ونزلت الفاقة ضيفًا ثقيلًا على العباد، فباتوا لا يجدون ما يسد الخلَّة، أو يمسك الرمق، حتى حنا الجوع قناة ظهرهم، وبات الهلاك إليهم أقرب من طرفة عين، وها هم اليوم

شعب قد أدركه النزع، وهو ينتظر نجدة أهل المروءة.

هذه هي حالة سوريا ولبنان، وهي على ما عرفتم لا تنقص هولًا عن حالة الأقطار التي تصطدم فيها الجحافل، وتمزق أديمها القنابل.

هذه هي حالة بلاد الشام التي قال عنها البحتري:

عُنيت بشرق الأرض قدمًا وغربها

أُجوِّب في آفاقها وأسيرُها

فلم أرَ مثل الشام دار إقامة

لراح أغاديها وكأسٍ أُديرها

مصحَّة أبدانٍ ونزهة أعينٍ

ولهوُ نفوسٍ مستديم سرورها

مقدسةٌ جاد الإله بلادها

ففي كل أرض روضة وغديرها

بات اليوم أهلها، وقد خيمت المسكنة عليهم، لا يجدون كسرة يرتمقون بها على الحياة، وهم الذين قال الشاعر في أجدادهم:[٢٢]

لله درُّ عصابة نادمتهم

يومًا بجلَّق في الزمان الأول

الخالطون فقيرهم بغنيهم

والمشفقون على الضعيف المُرْمل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

شُمُّ الأنوف من الطراز الأول

هذي هي حال لبنان الآن، وهو ذلك الجبل الأمين الذي طالما طوَّب الناس وغبطوا من كان له فيه مرقد عنزة – ذلك الجبل الأشم – جبل الأرز – الذي عاش على ممر الدهور بمأمن من الكوارث والخطوب، فتغنى بعظمته أنبياء التوراة، وشذا بذكره شعراء العرب من عهد الجاهلية حتى اليوم.

فيا أيتها الجبال الشامخة، جميلة كنت في جميع مظاهرك، حين تعصب الشمس جبينك بإكليل ساطع، أو يضفر القمر حول قممك هالة من نور، أو تكسو السحب معاطفك وشاحها القشيب.

كانت جبهتك المتوجة بالثلج طاهرة نقية لا يستطيع إلى تقبيلها سبيلًا إلا زرقة الفضاء وكواكب الجوزاء، كما أن جبابرة أرزك لم يدانها إلا نسور السماء.

أما الآن فقد امتدت يد الفاقة إليك، فانتهكت حرمتك، وبسط الجوع جناحه عليك، فدنس طهارتك، ونشر الموت رواقه على بنيك، فألبسك الحداد.

في مغاورك كانت تزمجر رياح الشتاء، فتقصي عنك كاسرات الوحش، ومن جوفك المملوء خيرات كانت تتدفق الينابيع العذبة على الصخور البيضاء، فتروي تلك الأزاهير التي تحوك على قدميك بساطًا سندسيًّا يفترشه الرعاة والفلاحون.

أما الآن فإن أنهارك وغدرانك تحولت عيونًا تسح على بنيك، وحفيف نسيمك صار نواحًا على رجالك، ووديانك ملئت عويلًا ونحيبًا.

من خشب أرزك بنى سليمان هيكله العظيم، ومن حجارتك نحت الفينيقيون هياكل الشمس وشادوا معابد عشتروت. من حريرك نُسجت أستار البِيَع وسُجُف الهياكل، ومن عريش كرومك وغابات زيتونك عُصِر الرحيق وتقطر زيت

التقديس.

أما الآن فصخورك البيضاء كلحت وتفتتت حقدًا، وأغصان غاباتك تلطم جذوعها جزعًا قبل أن تُقطع فتصير نعشًا أو وَقَدًا، والغزل ينزع من أيدي بناتك العذارى لتشد منها حبال المشانق وقيود الأحرار.

فأين أبطالك يفاخرون بمنعتهم في وهادك، يا جبال؟ وأين الشعراء يتغزلون بما فيك من عظمة وجلال؟

ماذا عسى أن يقال فيك اليوم غير ما قاله إرميا:[٢٣]

كل شعبها متنهدون ملتمسون طعامًا. قد بذلوا مشتهياتهم للأكل ورد النفس.

كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. صارت كأرملةٍ العظيمةُ في الأمم. السيدة في البلدان صارت تحت الجزية.

كهنتي وشيوخي فاضت أرواحهم في المدينة وهم يلتمسون مأكلًا ليردوا نفوسهم.

زال عن بنت صهيون كل بهائها. صار رؤساؤها كأيائل لم تجد مرعى، فساروا ولا قوة لهم أمام وجه الطارد.

تبكي بكاء في الليل ودموعها على خديها، لا مُعَزِّيَ لها من جميع محبيها.

ولكن عفوًا، يا سادة! إن ابنة صهيون – إن سوريا – إن جبال لبنان لن تبكي طويلًا؛ فهي واجدة من محبيها من يعزيها، ويضمد جروحها، ويرقأ دموعها.

وكثيرون ما هم محبوها.

هم جميع الشعوب التي تناضل في سبيل نصرة الحق وإغاثة الملهوف.

هم أنتم يا كرام المصريين، يا من عُرفتم بالعطف على كل منكوب، فكيف بكم

ومنكوب اليوم تربطكم به روابط الجوار والقرابة والتقاليد.

هم أنتم، يا أبناءها النازلين في كل مصر، الضاربين في كل قطر، من مشارق الدنيا ومغاربها، وكل منكم ذاكر، حيثما كان، بلادًا رواه ماؤها، وأظلته سماؤها، وجبل جسمه من عناصرها «فحنينه أبدًا لأول منزل».

أيها السادة!

أنتم في خفض رزقٍ وكفافٍ من العيش، فلا تستسلموا إلى طيبات الحياة وملاذِّها، فيمسي طعامكم مَتْخَمَةً، ويصبح شرابكم مَأْلَمَة. بل جودوا بشيء من فضلاتكم، يهنأ طعامكم ويمرأ شرابكم!

جودوا، ولو باليسير، يكن معروفكم مشكورًا، وبركم مقبولًا، فالخبز الناشف – على ما قال «ميرابوا» – يعد في نظر الجائع من سعة العيش.

احذروا الشعب إذا ما الشعب جاع، فالجوع يفتح في صدر الشعب ثغرة يملأها حقدًا وبغضًا. وليذكر أغنياؤنا – أتم الله عليهم نعمته! – أن مقابل كل فقير يشحب لونه جوعًا، يوجد غني يمتقع لونه خوفًا وذعرًا.

لا تقل يا سيدي الغني ما قاله ذلك المُثْرِي الذي أشرت إليه: «قاتل الله هذا الفقير، هو يشعر بالجوع ويشكو!»

بل قل ما قاله المُثْرِي الصالح: «أنا أتألم وأبكي إذا ما شبعت ورويت، حين يجوع غيري ويظمأ:

وإني لأطوي البطن والزاد مُشْتَهًى

مخافة يوم أن يقال لئيم

ولا تقولي يا سيدتي: «دفئ الطقس، فلا حاجة إلى إرسال الإعانة!»

بل قولي: يؤلمني أن أدفأ وأشبع، وغيري على سعار من الجوع.

لا تبخلوا بالمال في سبيل إنقاذ إخوانكم، فكل دينار تجودون به ينقذ والدًا ووالدة وأطفالًا.

يمضي أخوك فلا تلقي له خلفا

والمال بعد ذهاب المال مكتسب

ولا تُسوفوا في العطاء، فالجائع لا يشبعه الوعد، فخير البر عاجله، وألف كلمة: «تَفَضَّلْ» لا تساوي «حطة طبق» على ما يقول مثلنا العامي.

أيها السادة!

إن أشد الروابط بين الآدميين: الدين، واللغة، والجوار، فأنا أناشدكم جميع ذلك، فكل ذلك متوافر بين المنكوبين والمدعوين لإعانة نكبتهم.

أناشدكم الدين: فسوريا مهبط الأديان؛ هي منبت اليهودية وأنبيائها، ومهد النصرانية ورسلها، ومجلى الإسلام في أيام عزه، وفيها إحدى عواصمه الكبيرة.

أناشدكم اللغة: فإذا ما تفاخرت الأقطار، فمصر وسوريا

أُمُّ اللغات غداةَ الفخر أُمُّهما

وإنْ سألتَ عن الآباء فالعرب

أناشدكم حق الجوار والقرابة: فسوريا ومصر تتصافحان من فوق صحراء سينا، وتجمع بين أهليهما أشد صلات الرحم.

وإذا ما استحلفتكم بجميع ذلك، فإنه يلذ لي أيضًا أن أستحلفكم باسم العاطفة الإنسانية والرابطة الإخائية بين البشر، وما هي إلا تضامن متبادل بين الآدميين لمقاومة آفات الطبيعة.

ولكن علام أستفز همتكم، وقد نهضتم من تلقاء أنفسكم لما دعتكم إليه مروءتكم؟ وعلام أستثير عواطفكم، وقد قمتم طواعيةً بما أوحته لكم

أريحيتكم؟ فما استصراخي لكم إلا على حد قول الشاعر:

ويُهَزُّ الحسامُ وهو حسامٌ

ويُحَثُّ الجوادُ وهو جواد

[١] مقدمة ابن خلدون ص٣٣٧.

[٢] سفر التكوين (١٢: ١٠).

[٣] سفر التكوين (٤١: ٥٧).

[٤] سفر التكوين (٤٧: ١٣).

[٥] راجع الفصل الحادي والأربعين من سفر التكوين بكامله.

[٦] راجع الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي، وخطط المقريزي، وتاريخ ابن إياس، وفي كتاب «تقويم النيل» لسعادة أمين باشا سامي تفصيلٌ وافٍ لما أصاب مصر من السعة والضيق بسبب النيل على توالي السنين.

[٧] Raonl Glaver.

[٨] حسن المعاشرة للسيوطي.

[٩] حضارة الإسلام.

[١٠] مفردها حِدْبار، وهي الناقة الضامرة التي ذهب لحمها هزالا.

[١١] ضاغوا من الجوع: صاحوا وتباكوا.

[١٢] جاءت رواية هاتين الحادثتين في الجزء الأول من «صبح الأعشى» للقلقشندي (ص٢٣٢ و٢٣٣ طبعة بولاق)، وفي نسخة خطية من «قلائد الجمان» له أيضا، في «المكتبة الزكية».

[١٣] l’acte de famine.

[١٤] Lamennais.

[١٥] Virgile, Encide: Chant VI.

[١٦] Ovide.

[١٧] الرجل المستجيع: الذي لا تراه أبدًا إلا وهو جائع.

[١٨] Dante Alighieri: la Dicine Comedie (I’Enfer ch. XXXIH).

[١٩] Wieriz مصور بلجيكي ١٨٠٦–١٨٦٥.

[٢٠] تَجَوَّع: تعمَّد الجوع.

[٢١] Boulimie.

[٢٢] الأبيات من قصيدة لحسان بن ثابت المتوفى سنة ٥٤هـ، وجلق بكسر اللام المشددة أو فتحها: دمشق.

[٢٣] مراثي إرميا (١:١ و٢ و٦ و١١ و١٩).